بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد ومَنْ والاه، وبعد؛ فهذا كتابٌ وَضَعْناه في البلاغة، واتجهْنا فيه كثيرًا إلى الأَدب، رجاءَ أن يَجْتَليَ الطُلَّابُ فيه محاسنَ العربية، ويَلْمَحُوا ما في أساليبها من جلالٍ وجمال، ويَدْرُسُوا من أَفانين القول وضروب التعبير، ما يَهَبُ لهم نعْمَة الذوق السليم، ويُرَبّي فيهم ملكةَ النّقْد الصحيح، وأملنا أن يكون لعملنا هذا شأْنٌ في إحياءِ الأَدَب، وتَوْجيهِ أذهان المعلمين والطُلاب إلى هذه الطريقة التي ابتكرناها في دراسة البلاغة. ولعلنا نكون قد وُفّقْنا إلَى ما قَصَدْنا إليه، والله خَيرُ مُستعان.

التعريف بالمؤلفين

مؤلفا هذين الكتابين عملاقان من عمالقة اللغة في شتى فروعها.. ارتبطا ارتباطًا وثيقًا في كثير مما كتبا وألَّفا.. كما سيتضح فيما بعد..

وُلد الشاعر والأديب واللغوي علي الجارم بمدينة رشيد عام 1881م، في مدارسها بدأ أولى مراحل تعليمه.. ثم رحل إلى القاهرة حيث التحق بالأزهر الشريف إلى أن أتم دراسته الثانوية.. ثم التحق بعد ذلك بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، وما أن أتم دراسته الجامعية حتى سافر إلى إنجلترا في بعثة دراسية عام 1908م استغرقت أربع سنوات، عاد بعدها إلى القاهرة عام 1912م، حيث درس في إنجلترا أصول التربية.

وفي القاهرة تدرج في سلَّم التدريس حتى أصبح كبير مفتشي اللغة العربية.. وفي عام 1933م صدر مرسوم من رئاسة الوزراء باختياره عضوًا مؤسِّسًا لمجمع اللغة العربية.. بعدها عُيِّن عميدًا لكلية دار العلوم، وظل بهذا المنصب حتى بلغ سن الستين عام 1942م.

في عام 1936م زار الأستاذ علي الجارم بغداد للمرة الأولى للمشاركة في حفل تأبين شاعر العراق الكبير جميل صدقي الزهاوي.. وفي زيارته الثانية لبغداد ألقى قصيدته الرائعة (بغداد يا بلد الرشيد).

وعلى الرغم من دراسة الجارم في إنجلترا، إلا أنه لم يتأثر بالتيار التغريبي، كما تأثر البعض، وظل وفيًّا للغة العربية، محبًّا لها، مدافعًا عنها، معتزًّا بها، وكان من أهم العاملين على نهضتها ورقيها.. يتضح ذلك جليًّا في أعماله التي تناولت فنون الأدب العربي من شعر ونثر..

تبحر الجارم في علوم اللغة العربية، فبحث، ودرس، ومارس، حتى أصبح أحد أعلامها، وفاق الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه.

يقول الأستاذ عباس حسن، رحمه الله، في كتابه (المتنبي وشوقي):

بقي من خصائص شوقي التي امتاز بها على المتنبي النثر الرائع حقًّا، فله في هذا الميدان كتاب سماه (أسواق الذهب)، وما أحسبني مغاليًا إذا قلت عن النثر الأدبي البليغ والنثر العلمي المتأدب الرفيع لأديبنا المرحوم الأستاذ علي الجارم يمتاز به الجارم على المتنبي وشوقي وسائر شعراء العرب قديمًا وحديثًا، كما تنطق بذلك كتاباته النثرية الصادرة عن موهبة فنية أصيلة جعلت منها جميعا سلاسل الذهب)[1] لا مجرد (أسواق الذهب).

هذا عن نثره، أما عن شعره، فيقول الدكتور أحمد هيكل، العميد السابق لكلية دار العلوم: (الرائد الكبير علي الجارم، أحد أعلام الاتجاه المحافظ في الشعر العربي الحديث، هذا الاتجاه الذي راد تاريخه البارودي أولًا، ووصل إلى غايته شوقي فيما بعد، ثم كان الجارم واحدًا من الذين تصدروا السائرين في هذا الاتجاه، والمتنافسين لملء الفراغ بعد رحيل أمير الشعراء، بل كان بحق السابق إلى ملء هذا الفراغ، وخاصة في الجانب المحفلي والرسمي الذي كان من أبرز جوانب إمارة شوقي.. وديوان الجارم، بأجزائه الأربعة، هذا العطاء الوفير والغزير الذي يمثل طبقة سامية من طبقات الشعر المحافظ، تضع صاحبها في مكان المتصدرين من أصحاب هذا الاتجاه الفني الرصين، وجميعهم يشير إلى المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها الجارم وهي مدرسة المحافظين).

(1) القصص الأدبي التاريخي الكامل للأستاذ علي الجارم، صدر عن الدار المصرية اللبنانية في ثلاثة أجزاء.

لقد جمع الجارم في ديوانه هذا بين القصائد السياسية والأدبية، والاجتماعية.

وبعيدًا عن الشعر والنثر، هناك الكتب الدراسية والتعليمية، التي اشترك في تأليفها مع الأستاذ مصطفى أمين.

كان الأستاذ مصطفى أمين مدرسًا للغة العربية بالمدارس الأميرية، في الوقت الذي كان الجارم يعمل مفتشًا للغة العربية..

أعجب الجارم بأسلوب مصطفى أمين في التدريس، فقد كان أسلوبه سهلًا واضحًا يقرب المادة إلى أذهان الطلاب، ويحببهم إليها.

توطدت العلاقة بين العملاقين، علي الجارم ومصطفى أمين، وعرض الجارم على صديقه الأصغر منه سنًا، مصطفى أمين الاشتراك في تأليف كتب في اللغة العربية، تأخذ الطابع التعليمي المنهجي.. وبالفعل بدأ العملاقان في كتابة العديد من الكتب، وكان من بينها هذان الكتابان: البلاغة الواضحة، ودليل البلاغة الواضحة للمدارس الثانوية.

وقد لاقى هذان الكتابان الإعجاب والقبول من أساتذة اللغة العربية ومعلميها ودارسيها، نظرًا للطريقة التربوية الفذة والمبتكرة التي سلكها المؤلفان العملاقان من إيراد الأمثلة وشرحها، ثم استخلاص القاعدة أو القواعد منها.

وعن أسلوب المؤلِّفين، يقول الأستاذ الدكتور محمد مهدي علام، نائب رئيس مجمع اللغة العربية[1]:

لقد دَرَسْتُ علم النفس، طالبًا في كلية دار العلوم، في أحد كتبه، يعني العلامة علي الجارم، التي اشترك فيها مع زميله أستاذي

(1) جاء ذلك في المقدمة التي كتبها د. محمد مهدي علام للكتاب الذي رتبه أ.د. أحمد علي الجارم، وجمع فيه تراث والده البحثي واللغوي.

العلامة مصطفى أمين، وهو أول تأليف باللغة العربية في علم النفس، وما سبق ذلك كان في علم التربية.. وكانت فصول هذا الكتاب بينهما.. وعن المقارنة بين أسلوبي العملاقين، يقول د. محمد مهدي علام:

كانت بعض فصول الكتاب تتدفق أدبًا رفيعًا يعبر عن حقائق علم النفس كأنها خطرات شاعر.. على حين كانت الفصول الأخرى تلتزم دقة الأسلوب العلمي الذي يكاد يزن الحرف قبل الكلمات، ويعطي الحقائق العلمية كأنها معادلات رياضية.

لقد كان صاحب الأسلوب الأول هو الشاعر الأديب الضليع في علم النفس علي الجارم.. وكان صاحب الأسلوب الثاني هو العالم الأستاذ في مادته مصطفى أمين، يعبر بأدق الصيغ، لا يستهويه بيت شعر مثلًا يكون معبرًا عن المعنى الذي يكتب عنه كما فعل زميله علي الجارم..

لقد عاش مصطفى أمين نموذجًا للدقة البالغة.

وفاتهما:

في عام 1949م، وبينما كان الأستاذ علي الجارم يصغي لأحد تلاميذه وهو يلقي قصيدة في حفل تأبين محمود فهمي النقراشي، توقفت نبضات قلبه، وفاضت روحه إلى بارئها.. وبعده بسنوات قليلة، وفي خمسينيات القرن الماضي توفى الأستاذ مصطفى أمين..

رحم الله الأديبين العملاقين رحمة واسعة، ونفع بعلمهما.. آمين

**الفصاحة
البلاغة
الأسلوب**

الفصاحة: الظهور والبيان، تَقُول: أفْصح الصُّبْحُ إذا ظَهَر. والكلامُ الفصيحُ ما كان واضحَ المعنى، سهل اللفظِ، جيِّدَ السَّبك. ولهذا وجبَ أن تكون كلُّ كلمة فيه جاريةً على القياس الصَّرفي [1]، بينةً في معناها، مفهومةً عَذْبةً سلِسةً.

وإنما تكونُ الكلمة كذلك إذا كانت مألوفَةَ الاستعمال بَين النابهين من الكتاب والشعراء، لأنها لَم تَتَداولها ألسِنتُهم، ولم تَجْرِ بها أقلامهم، إلا لمكانها من الحُسْن باستكمالها جميع ما تقدم منْ نُعوت الجوْدة وصفاتِ الجمال.

والذوقُ السليمُ هو العُمْدةُ في معرفة حُسنِ الكلمات وسَلاسَتِها، وتمييز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه؛ لأنَّ الألفاظَ أصواتٌ ، فالذي يطْرَبُ لصوْت البُلْبُل، وينْفِر من أصوات البُوم والغِرْبان، ينْبُو سمعُه عن الكلمة إذا كانت غريبةً مُتَنَافِرَةَ الحروف [2] ألا ترى أن كلمتَي «المُزْنة» و «الدِّيمة» للسَّحابة المُمْطِرة، كلتاهما سَهلَة عذْبَةٌ يسكنُ إليها السمعُ، بخلاف كلمة «البُعَاق» التي في معناهما؛ فإنها قبيحةٌ تَصُكُّ الآذانَ. وأمثال ذلك كثير في مُفْردات اللغة تستطيعَ أَن تُدْركه بذَوْقكَ.

***

(1) ويشترطُ في فصاحةِ التركيب- فوْقَ جريان كلماته على القياس الصحيح وسهولتِها -أنْ يسلمَ من ضَعف التأليفِ، وهو خروجُ الكلام عن قواعد اللغة المطردة، كرجوع الضميرِ على متأخر لفظًا ورتبةً في قول سيدنا حَسانَ رضي الله عنه [3]:

---

(1) فقول المتنبي:

فلا يُبرم الأمر الذي هو حالل   ولا يُحلَل الأمر الذي هو يبرم

غير فصيح؛ لأنه اشتمل على كلمتين غير جاريتين على القياس الصرفي، وهما حالل، ويحلل، فإن القياس حال ويحل بالإدغام.

(2) تنافر الحَروف: وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم المكتسب بالنظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم.

(3) هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أجمعت العرب على أنه أشعر أهل المدر. قيل إنه عاش 120 سنة: 60 في الجاهلية و60 في الإسلام، وتوفى سنة 54هـ.

ولو أنَّ مَجدًا أخلَدَ الدهْر واحِدًا ... مِنَ النَّاسِ أبْقى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطعِما[1]

فإنَّ الضميرَ في «مَجده» راجع إلى «مُطعِما» وهو متأخرٌ في اللفظ كما ترى، وفي الرتبة لأنه مفعول به، فالبيت غير فصيح.

(2) ويشترطُ أنْ يسلمَ التركيبُ من تنافر الكلماتِ: فلا يكونُ اتِّصالُ بعضها ببعضٍ مما يُسبِّب ثِقَلَها على السمع، وصُعوبةَ أدائها باللسان، كقول الشاعر :

وقـبـرُ حـرب بـمـكـانٍ قَـفْـرُ ... وليسَ قـربَ قبْرِ حـربٍ قَبرُ[2]

قيلَ: إنَّ هذا البيتَ لا يَتَهيَّأُ لأحدٍ أن يُنْشدَهُ ثلاثَ مرات متواليات دونَ أن يَتَتَعْتَعَ[3]، لأنَّ اجتماعَ كلماته وقُربَ مخارج حروفها، يحدِثانِ ثِقلًا ظاهرًا، مع أنَّ كلَّ كلمةٍ منه لو أُخذتْ وحدها كانت غيرَ مُستكْرهةٍ ولا ثقيلة.

(3) ويجبُ أنْ يسلمَ التركيبُ من التَّعقيد اللفظيِّ، وهو أنْ يكون الكلام خَفيَّ الدلالة على المعنى المراد بسبب تأخير الكلمات أو تقديمِها عن مواطنِها الأصليةِ، أو بالفصل بين الكلمات التي يجبُ أن تتجاورَ ويتَّصلَ بعضُها ببعض، فإذا قلتَ: «ما قرأ إلاَّ واحدًا محمدٌ مع كتابًا أخيه» كان هذا الكلامُ غيرَ فصيح لضعْفِ تأليفه، إذ أصلهُ «ما قرأ محمدٌ مع أخيه إلا كتابًا واحداً»، فقُدِّمت الصفةُ على الموصوفِ، وفُصل بين المتلازمين، وهما أداةُ الاستثناء والمستثنى، والمضافُ والمضافُ إليه. ويشبهُ ذلك قول أبي الطَّيب المتنبي[4]:

أنَّـى يـكُـونُ أبـا الـبَـرِيَّـةِ آدمٌ ... وأبُوكَ والثَّقَلانِ أنتَ محَمَّدُ؟[5]

والوضعُ الصحيحُ أن يقولَ: كيفَ يكونُ آدم أبا البرية، وأبوك محمد، وأنت الثقلان؟ يعني أنَّه قد جَمعَ ما في الخليقة من الفضل والكمال، فقد فَصَل بين المبتدأ والخبر وهما «أبوك محمد»، وقدَّم الخبر على المبتدأ تقديمًا قد يدعو إلى اللبس في قوله «والثقلان أنت»، على أنه بعد التعسف لم يسلمْ كلامُه من سُخفٍ وهَذَرٍ.

(1) هو مطعم بن عدي أحد رؤساء المشركين، وكان يذب عن النبي صلى الله عليه وسلم.
ومعنى البيت أنه لو كان مجد الإنسان أو شرفه سببًا لطول حياته وخلوده في هذه الدنيا، لكان مطعم بن عدى أولى الناس بالخلود، لأنه حاز من المجد السؤدد ما لم يحزه غيره.

(2) البيت من الرجز، ولا يعرف قائله، ولعله مصنوع.

(3) تتعتع في الكلام: تردد فيه من حصر أوعي.

(4) أبو الطيب المتنبي هو أحمد بن الحسين الشاعر الطائر الصيت، كان من المطلعين على غريب اللغة، وشعره غاية في الجودة، يمتاز بالحكمة وضرب الأمثال وشرح أسرار النفوس، ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة سنة 303هـ وتوفي سنة 354هـ.

(5) الثقلان: الإنس والجن، البيت من قصيدة طويلة في مدح شجاع بن محمد الطائي.

(4) ويجبُ أنْ يسلمَ التركيبُ من التعقيدِ المعنويِّ، وهو أن يَعمدَ المتكلِّمُ إلى التعبير عن معنًى فيستعمل فيه كلماتٍ في غير معانيها الحقيقية، فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذي يُريده، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع. مثال ذلك أن كلمة اللسان تُطلَق أحيانًا ويُراد بها اللغة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم:4]، أي ناطقًا بلغة قومه، وهذا استعمالٌ صحيحٌ فصيحٌ، فإذا استعمل إنسانٌ هذه الكلمة في الجاسوس، وقال: «بثَّ الحاكم ألسنته في المدينة» كان مخطئاً، وكان في كلامه تعقيدٌ معنويٌّ، ومن ذلك قول امرئ القيس[1] في وصْفِ فرَس:

وأرْكَـبُ فـي الـرَّوْع خَيفانةً ... كَسا وجْهَهَا سَعف مُنتشر[2]

الخَيْفانة في الأصل الجرادة، ويريدُ بها هنا الفرس الخفيفة، وهذا لا بأْس به وإن كان تشبيهُ الفرس بالجرادة لا يخلو من ضعف، أمَّا وصفُ هذه الفرس بأنَّ شَعر ناصيتها طَويلٌ كَسَعف النخل يُغطِّي وجهَها، فغيرُ مقبول؛ لأنَّ المعروف عند العرب أنَّ شعرَ الناصية إذا غَطَّى العينين لم تكنِ الفرسُ كريمةً ولم تكنْ خفيفةً. ومنَ التعقيدِ المعنويِّ قول أبي تمَّام[3]:

جَذَبتُ نَداهُ غدوة السَّبتِ جذْبةً ... فخرَّ صريعًا بين أيدِي القصائد[4]

فإنه ما سكتَ حتى جعل كرمَ ممدوحهِ يَخرُّ صريعًا، وهذا من أقبح الكلام.

***

أما **البلاغةُ** فهي تأْديةُ المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحةٍ فصيحة، لها في النفس أثرٌ خلابٌ، مع ملاءَمة كلِّ كلام للموطن الذي يُقال فيه، والأشخاص الذين يُخاطَبون.

فليستِ البلاغةُ قبلَ كل شيءٍ إلا فنًّا من الفنون يَعْتمدُ على صفاء الاستعداد الفطريِّ، ودقة إدراك الجمال، وتبَين الفروقِ الخفيَّة بين صنوف الأساليب، وللمرانةِ يدٌ لا تُجحَدُ في تكوين الذوق الفنِّي، وتنشيطِ المواهب الفاترة، ولا بدَّ للطالب- إلى جانب ذلك - منْ قراءَة طرائف الأدب، و التَّمَلؤ من نَميره الفياض، ونقدِ الآثار الأدبيَة والموازنة بينها، وأنْ يكونَ له من الثقةِ بنفسه ما يدفعه إلى الحكم بحسن ما يراه حسنًا وبقبْحِ ما يَعُدُّه قبيحاً.

وليسَ هناك من فرق بين البليغ والرَّسام إلا أنَّ هذا يتناولُ المسموعَ من الكلام، وذلك

(1) هو رأس شعراء الجاهلية وقائدهم إلى الافتنان في أبواب الشعر وضروبه، ولد سنة 130 ق هـ، وآباؤه من أشراف كندة وملوكها، وتوفي سنة 80 ق هـ وله المعلقة المشهورة.

(2) الروع: الفزع، السعف جمع سعفة: وهي غصن النخل.

(3) أبو تمام: هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر المشهور. كان واحد عصره في الغوص وراء المعاني وفصاحة الشعر وكثرة المحفوظ، وتوفي بالموصل سنة 231هـ.

(4) الندى: الجود. وخرَّ صريعاً: سقط على الأرض.

يُشاكلُ بين المرْئيّ من الألوان والأَشكال، أمّا في غير ذلك فهما سواء، فالرَّسامُ إذا همَّ برسم صورة فكّر في الألوان الملائمة لها، ثم في تأليف هذه الألوان بحيث تختَلِب الأبصار وتُثير الوجدان، والبليغُ إذا أراد أن يُنْشيءَ قصيدةً أو مقالةً أو خطبةً فكَّر في أجزائها، ثم دعا إليه من الألفاظ والأساليبَ أخفَّها على السمع، وأكثرها اتصالا بموضوعه. ثم أقواها أثرًا في نفوس سامعيه وأروعَها جمالاً.

فعناصرُ البلاغة إذًا لفظٌ ومعنًى وتأليفٌ للألفاظ يَمْنَحُها قُوةً وتأْثيرًا وحُسْناً. ثم دقةٌ في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته، وحال السامعين والنَّزْعةِ النفسية التي تَتَملَّكهم وتُسَيْطِرُ على نفوسهم، فَرُبَّ كلمةٍ حسُنتْ في موطنٍ ثم كانتْ نابيةً مُسْتكْرَهةً في غيره. وقديمًا كره الأدباء كلمة «أيضاً» وعَدُّوها من ألفاظ العلماء فلم تَجْر بها أقلامهم في شعر أو نثر حتى ظَهَرَ بينهم من قال:

رُبَّ ورْقَــاءَ هَتُوفٍ في الضُّحا ... ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ(1)
ذَكَــرَتْ إلــفًا ودهْــرًا سَالِفاً ... فَبَكَتْ حُزنًا فَهاجتْ حَزَني(2)
فَــبكــائي رُبَّـمــا أرَّقــهـا ... وبُـكـاهـا ربَّـمـا أَرَّقَـــنـي(3)
ولَـقَـدْ تَـشْـكـو فَـمَـا أفْهمُها ... ولـقـدْ أشـكـو فَـمـا تَفهمُني
غـيْـر أنِّـي بـالـجـوى أعْـرِفُـها ... وهْي «أَيضاً» بالجوَى تعْرِفُني(4)

فوَضع «أيضاً» في مكانٍ لا يَتطلب سواها ولا يَتَقَبَّل غيرها، وكان لها من الرَّوْعة والحُسنِ في نفس الأديب ما يعْجِزُ عنها البيانُ.

ورُبَّ كلامٍ كان في نفسه حسنًا خلاَّبًا حتى إذا جاء في غير مكانه، وسقَطَ في غير مسقَطِه، خرج عن حدِّ البلاغةِ، وكان غَرضًا لسهام الناقدينَ.

ومن أمثلة ذلك قولُ المتنبي لكافور الإخشيدي (5) في أول قصيدة مدحه بها:

كَفى بِكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافيا ... وحَسْبُ المنايا أَن يَكُنَّ أمانيا(6)

(1) الورقاء: الحمامة في لونها بياض إلى سواد. والهتوف: كثيرة الصياح. والشجو: الهم والحزن. والصدح: رفع الصوت بالغناء، والفنن: الغصن.

(2) الإلف: الأليف. (3) الأرق: السهر، وأرقها: أسهرها. (4) الجوى: الحرقة وشدة الوجد.

(5) كافور الإخشيدي: هو الأمير المشهور صاحب المتنبي، وكان عبدًا اشتراه الإخشيد ملك مصر سنة 312 هـ فنسب إليه وأعتقه، فترقى عنده، وما زالت همته تسمو به حتى ملك مصر سنة 355هـ وكان مع شجاعته فطنًا ذكيًا حسن السياسة، وتوفي بالقاهرة سنة 357 هـ.

(6) كفى بك : أي كفاك فالباء زائدة، والمنايا جمع منية وهي الموت، والأماني: جمع أمنية وهي الشيء الذي تتمناه؛ يخاطب أبو الطيب نفسه ويقول: كفاك داء رؤيتك الموت شافيًا لك، وكفى المنية أن تكون شيئًا تتمناه.

وقوله في مدحه:

وَمَـا طَرَبِي لمَّا رَأيْـتُـكَ بِدْعَةً || لقد كنتُ أرْجُو أنْ أرَاكَ فأطرَبُ

قال الواحديّ[1]: هذا البيتُ يشبهُ الاستهزاءَ فإنه يقول: طَربتُ عند رؤيتك كما يطرَبُ الإنسانُ لرؤيةِ المضحكات. قال ابن جنيّ[2]: لما قرأت على أبي الطيب هذا البيت قلتُ له: مَا زدتَ على أنْ جعلتَ الرجلَ قردًا، فضَحِكَ. ونَرى أن المتنبي كان يغْلي صدرُه حقدًا على كافور وعلى الأيام التي ألجأته إلى مدحه؛ فكانت تَفرُّ من لسانه كلماتٌ لا يستطيع احتباسها. وقديمًا زَلَّ الشعراءُ لمعنى أو كلَمة نَفَّرتْ سامعيهم، فأخرجتْ كلامَهم عن حدِّ البلاغة، فقد حكَوا أن أبا النجم [3] دخل على هشام بن عبد الملك وأنشده:

صَـفْـراءُ قد كـادتْ ولمَّا تَفعل || كأنَّهـا فـي الأفْـقِ عيْـنُ الأحـولِ[4]

وكان هشامٌ أحْولَ فأَمر بحبسه.

ومدح جرير[5] عبْدَ الملك بْنَ مَرْوان بقصيدة مطلعها: «أتَصحو أم فؤادُك غيرُ صاحِ» فاستنكر عبدُ الملك هذا الابتداءَ وقال له: بل فؤادكَ أنتَ.

وَنَعَى علماءُ الأدب على البُحْتُرى[6] أن يبدأ قَصيدةً يُنشدها أمام ممدوحه بقوله:

«لَكَ الْوَيْلُ مِنْ لَيْلٍ تقاصَرَ آخِرُه»..

وعابوا على المتنبي قولَهُ في رثاء أمِّ سيف الدولة [7]:

(1) الواحدى: مفسر عالم بالأدب، مولده ووفاته بنيسابور، وكتبه البسيط والوسيط والوجيز في التفسير مخطوطة، وشرحه لديوان المتنبي مطبوع توفى سنة 468هـ.

(2) ابن جني: هو من أئمة النحو والعربية ولد في الموصل وتوفى ببغداد سنة 392 هـ. ومن مؤلفاته الخصائص في اللغة، وكان المتنبي يقول: ابن جني أعرف بشعرى مني.

(3) أبو النجم: هو الفضل بن قدامة، وهو من رجال الإسلام، والفحول المتقدمين في الطبقة الأولى منهم، وله مع هشام بن عبد الملك أخبار طويلة، وكانت وفاته آخر دولة بني أمية.

(4) قيل هذا البت في وصف الشمس، والأحول: من بعينه حول، وهو ظهور البياض في مؤخر العين، ويكون السواد من قبل الماق.

(5) جرير هو ابن عطية التميمي، أحد الشعراء الثلاثة المقدمين في دولة بنى أمية، وهم الأخطل، وجرير، والفرزدق، وقد فاق صاحبيه في بعض فنون الشعر، وتوفى سنة 110هـ.

(6) البحتري شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية، سئل أبو العلاء المعري: من أشعر الثلاثة، أبو تمام أم البحتري أم المتنبي؟ فقال: أبو تمام والمتنبي حكيمان، وإنما الشاعر البحتري. وكانت ولادته بمنبج (وهي بلدة قديمة بين حلب والفرات) وتوفي بها سنة 284 هـ

(7) سيف الدولة: هو أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان، كان ملكًا على حلب، وكان أديبًا شاعرًا مجيدًا محبًا لجيد الشعر شديد الاهتزاز له؛ قيل لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء، وقد انقطع المتنبي إليه وخصه بمدائحه. وكانت ولادته سنة 303 هـ وهي سنة ولادة المتبني، ووفاته سنة 356 هـ بعد مقتل المتنبي بسنتين.

صَـــلاةُ الـلـه خالِقِنا حَـنُـوطٌ   على الوَجْهِ المُكَفَّنِ بالجَمَال[1]

قال ابْنُ وَكِيع [2]: إن وصفَه أُمَّ الملك بجمالِ الوجه غير مختار.

وفي الحق أَنَّ المتنبي كان جريئًا في مخاطبةِ الملوك، ولعلَّ لعظم نفسهِ وعَبْقَريَّته شأْنًا في هذا الشذوذ.

إذنْ لابدَّ للبليغ أولا من التفكيرِ في المعاني التي تجيش في نفسه، وهذه يجب أَن تكون صادقةً ذاتَ قيمةٍ وقوة، يظهر فيها أثر الابتكارِ وسلامةِ النظر ودقة الذوق في تنسيقِ المعاني وحسن ترتيبها، فإذا تم له ذلك عَمدَ إلى الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة، فألف بينها تأليفًا يكسبها جمالًا وقوّة، فالبلاغةُ لَيست في اللفظ وحدَه، وليستْ في المعنى وحدَه، ولكنها أثرٌ لازمٌ لسلامةِ تأليفِ هذين وحُسْن انسجامِهما.

***

بعد هذا يحسن بك أن تَعرف شيئًا عن الأسلوب الذي هو المعنى المَصُوغُ في ألفاظ، مؤلفة على صورة تكونُ أقربَ لنَيْل الغرض المقصود من الكلام وأفعل في نفوس سامعيه، وأنواع الأساليب ثلاثة:

(1) الأُسلوبُ العِلميُّ: هو أهدأُ الأساليب، وأكثرها احتياجًا إلى المنطق السليم والفكر المستقيم، وأبعدُها عن الخيال الشِّعريِّ، لأنه يخاطب العقلَ، ويناجي الفكرَ، ويَشرَح الحقائقَ العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء، وأظهرُ ميزات هذا الأسلوب الوُضوحُ. ولا بدَّ أن يبدوَ فيه أثرُ القوة والجمالِ، وقوتُه في سطوعِ بيانهِ ورصانةِ حُجَجه، وجَمالُه في سهولةِ عباراتهِ، وسلامةِ الذوق في اختيار كلماتهِ، وحُسنِ تقريره المعنى في الأفهامِ منْ أقربِ وجوه الكلام.

فيجبُ أن يُعنَى فيه باختيار الألفاظ الواضحة الصريحة في معناها الخالية من الاشتراك، وأن تُؤلّفَ هذه الألفاظ في سهولة وجلاء، حتى تكون ثوبًا شفًا للمعنَى المقصود، وحتى لا تصْبحَ مثارًا للظنون، ومجالًا للتوجيه والتأويل.

ويحسنُ التنَحِّي عن المجاز ومُحَسِّناتِ البديع في هذا الأُسلوب؛ إلَّا ما يجيءُ من ذلك عفوًا، من غير أن يَمَسَّ أصلًا من أصوله أو ميزةً من ميزاته. أمَّا التشبيه الذي يُقصدُ به تقريبُ الحقائق إلى الأفهام وتوضيحُها بذكر مماثلها، فهو في هذا الأسلوب حسنٌ مقبولٌ.

ولسنا في حاجة إلى أَن نُلقيَ عليك أَمثلةً لهذا النوع، فكتُبُ الدراسة التي بين يديك تجري جميعُها على هذا النحو من الأساليب.

(1) الصلاة: الرحمة، والحنوط: طيب يخلط للميت. يدعو لها بأن تكون رحمة الله لها بمنزلة الحنوط للميت.

(2) ابن وكيع: شاعر مجيد، أصله من بغداد، ولد في تنيس بمصر وتوفي بها سنة 393هـ وله ديوان شعر.

(2) الأُسلوبُ الأَدبيُّ: والجمال أبرزُ صِفاته، وأظهر مُميِّزاته، ومَنشأُ جماله ما فيه من خيال رائع، وتَصْوير دقيق، وتلمُّس لوجوه الشبهِ البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنويِّ ثوبَ المحْسوس، وإظهار المحسوس في صورة المعنويِّ.

فالمتنبي لا يرَى الحُمَّى الراجعةَ كما يراها الأَطباءُ أثرًا لجراثيم تَدْخلُ الجسم، فترفعُ حرارته، وتُسببُ رِعْدة وقُشَعْريرةً. حتى إذا فرغت نوْبَتها تَصبَّبَ الجسم عَرَقاً، ولكنه يُصوِّرها كما تراها في الأبيات الآتية:

وزَائِــرتــي كــأَنَّ بــهــا حــيــاءً ... فلَيْس تَــزُورُ إلاَّ في الــظَّــلام[1]
بذَلتُ لَها المَطَارف والحَشَايَا ... فعَافتها وباتتْ في عظامي[2]
يضيقُ الجلدُ عَـنْ نَفسِي وعنها ... فَتُـوسِـعُـهُ بِـأَنـواع الـسَّـقَـام[3]
كـأَنَّ الصبحَ يـطْـرُدُها فتجرى ... مَـدَامِـعُـهـا بـأَربـعـة سجام
أُراقِــبُ وقْتَها مِـنْ غَيْر شَـوْق ... مُرَاقَبَةَ المَشُوق المُسْتهَام[4]
ويَصْدُقُ وعْدُهَا والـصِّـدْقُ شرٌّ ... إذا أَلْقاكَ في الكُرَب العِظام[5]
أَبِـنـتَ الـدَّهْـر عِـنْـدِي كـلُّ بنْتٍ ... فكيف وصَلتِ أَنتِ من الزِّحام[6]

والغُيُومُ لا يراها ابنُ الخياط [7] كما يراها العالمُ بخارًا مُترَاكِمًا يَحُولُ إلى ماء إذا صادف في الجوّ طبقة باردة ولكنه يراها:

كـأن الـغـيـومَ جُـيُـوشٌ تَـسُـومُ ... منَ العدْل في كلِّ أرضٍ صلاحا [8]

(1) الواو واو رب، أي رب زائرة لي، يريد بهذه الزائرة الحمى، وكانت تأتيه ليلا، يقول: كأنها فتاة ذات حياء؛ فهي تزورني تحت سواد الليل.
(2) المطارف: جمع مطرف كمكرم وهو رداء من خز، والحشايا: جمع حشية وهي الفراش المحشو، وعافتها: أبتها. يقول: هذه الزائرة أي الحمى لا تبيت في الفراش، وإنما تبيت في العظام.
(3) يقول: جلدي يضيق عن أن يسع أنفاسي ويسعها، فهي تذيب جسمي وتوسع جلدي بما تصيبه به من أنواع السقام.
(4) يقول إنه يراقب وقت زيارتها خوفًا لا شوقاً.
(5) يريد بوعدها وقت زيارتها، ويقول إنها صادقة الوعد لأنها لا تتخلف عن ميقاتها، وذلك الصدق شر، لأنها تصدق فيما يضر.
(6) يريد ببنت الدهر الحمى، وبنات الدهر شدائده، يقول للحمى: عندي كل نوع من أنواع الشدائد، فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول إلي؟
(7) ابن الخياط: شاعر من أهل دمشق، طاف بالبلاد يمتدح الناس، وعظمت شهرته. وله ديوان شعر مشهور، توفى بدمشق سنة 517 هـ.
(8) تسوم من العدل في كل أرض صلاحاً، أي تولى كل أرض صلاحًا بالخصب والنماء.

إذا قاتل المحْل فيها الغَمامُ ... بصوْبِ الرِّهام أجَادَ الكفاحا[1]
يُقَرْطِسُ بالطَّلِّ فيه السِّهامَ ... ويُشرِعُ بالوَبْلِ فيه الرِّماحا[2]
وسلَّ عَليْه سُيوفَ البُرُوق ... فأثخَنَ بالضرْب فيه الجراحا[3]
تُرَى ألْسُنُ النوْر تُثني عليْه ... فتَعْجَبُ منهن خُرْسًا فِصَاحا[4]

وقد يتظاهرُ الأديبُ بإنكار أسباب حقائق العلم، ويتلَمَّسُ لها من خياله أسبابًا تُثبت دَعواهُ الأدبية وتُقوِّي الغرض الذي يَنشدُهُ، فَكَلَفُ البدر الذي يَظهرُ في وجهه ليس ناشئًا عما فيه من جبالٍ وقيعانٍ جافةٍ كما يقولُ العلماءُ، لأنَّ المَعرِّي[5] يرى لذلك سببًا آخر فيقول في الرثاء:

وما كُلْفةُ البَدْر المُنير قديمةً ... ولكنها في وجْهِهِ أثَرُ اللَّطم[6]

ولا بدَّ في هذا الأسلوبِ من الوضوحِ والقوةِ؛ فقولُ المتنبي:

قفي تَغْرَمِ الأولى مِنَ اللَّحْظِ مُهجَتي ... بثانِيةٍ والمُتْلِفُ الشيءَ غارِمُه[7]

غيرُ بليغٍ؛ لأنه يريد أنه نظر إليها نظرةً أتلفتْ مهجته، فيقول لها: قفي لأنظركِ نظرةً أخرى تردُّ إليَّ مهجتي وتُحييها، فإنْ فَعلْتِ كانتِ النظرة غرْمًا لِمَا أتلفته النظرةُ الأُولى.

فانظر كيف عانينا طويلا في شرح هذا الكلام الموجز الذي سبَّبَ ما فيه من حذف وسوء تأْليف شِدةَ جفائه وبُعْدَه عن الأذهان، مع أنَّ معناهُ جميلٌ بديعٌ، وفكرته مُؤيَّدةٌ بالدليل.

وإذا أردتَ أن تَعْرف كيف تَظْهرُ القوةُ في هذا الأسلوب، فاقرأ قول المتنبي في الرثاء:

مَا كُنْتُ آملُ قَبلَ نَعْشك أن أرى ... رضْوَى على أيْدي الرجالِ يَسيرُ[8]

ثم اقرأ قول ابن المعتز[9]:

---

(1) المحل: الجدب وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ، والصواب: نزول المطر، والرهام: جمع رهمة وهي المطر الضعيف الدائم، والكفاح: القتال والمدافعة.

(2) القرطاس: الغرض أو الهدف، ويقال قرطس الرامي إذا أصاب القرطاس أي الغرض، فهو يقول: إن الغمام يسدد السهام إلى المحل فيقضي عليه، ومعنى يشرع الرماح. يسددها، والوبل: المطر الشديد الضخم القطر.

(3) أثخن بالضرب فيه الجراح: بالغ الجراحة فيه.

(4) النور: الزهر.

(5) المعري: هو أبو العلاء المعري اللغوي الفيلسوف الشاعر المشهور، ولد بالمعرة وهي بلد صغير بالشام، وعمي من الجدري وهو في ا لرابعة من عمره، وتوفي بالمعرة سنة 449 هـ.

(6) الكلفة: حمرة كدرة تعلو الوجه.

(7) غرم ما أتلفه: لزمه أداؤه، وتغرم جواب قفي وفاعله الأولى، ومن اللحظ بيان للأولى، ومهجتي مفعول تغرم.

(8) رضوى: اسم جبل بالمدينة، شبه المرثي به لعظمته وفخامة قدره.

(9) ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز العباسي، أحد الخلفاء العباسيين، منزلته في الشعر والنثر رفيعة، ويشتهر بتشبيهاته الرائعة، وهو أول من كتب في البديع، توفي سنة 296هـ.

قدْ ذَهـبَ الناسُ ومـاتَ الكمالْ وصاحَ صَرفُ الدَّهْرِ أين الرجالْ؟
هــذا أبُــو الـعَـبَّـاس فـي نَعْشِه قوموا انْظرُوا كيف تَسيرُ الجبالْ

تجدْ أنَّ الأُسلوبَ الأولَ هادئ مطمئنٌ، وأَنَّ الثاني شديدُ المرَّةِ عظيمُ القوَّةِ، وربما كانت نهايةُ قوتهِ في قوله: «وصاحَ صَرْفُ الدهر أَينَ الرجال» ثم في قوله: «قوموا انظروا كيف تسيرُ الجبال».

وجملةُ القول : أنَّ هذا الأُسلوبَ يجب أنْ يكون جميلًا رائعًا بديعَ الخيال، ثم واضحًا قويًّا. ويظنُّ الناشئون في صناعة الأدبِ أنه كلما كثر المجازُ، وكثرتِ التشبيهاتُ والأخيلةُ في هذا الأسلوب زادَ حسنُه، وهذا خطأٌ بيِّنٌ، فإنه لا يذهبُ بجمال هذا الأسلوبِ أكثر من التكلُّف، ولا يُفسدُه شرٌّ من تعمُّدِ الصناعة، ونَعْتقدُ أنه لا يُعجبكَ قولُ الشاعر :

فأمطَرَتْ لؤلؤًا من نرْجِسٍ وسقَتْ وَرْدًا وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ [1]

هذا ومن السهلِ عليك أَن تَعْرفَ أَنَّ الشعرَ والنثرَ الفنيَّ هما مَوْطِنا هذا الأسلوب ففيهما يزْدهِرُ وفيهما يبلغُ قُنَّةَ الفنِّ والجمَال.

(3) الأسلوبُ الخطابيُّ : هنا تَبْرُزُ قوةُ المعاني والألفاظِ، وقوةُ الحجَّةِ والبرهانِ، وقوةُ العقل الخصيب، وهنا يتحدَّثُ الخطيبُ إلى إرادة سامعيه لإثارةِ عزائمهم واستنهاض هممهم، ولجمالِ هذا الأسلوبِ ووضوحه شأنٌ كبيرٌ في تأثيره ووصوله إلى قرارة النفوس، ومما يزيدُ في تأثير هذا الأسلوب منزلةُ الخطيب في نفوس سامعيه وقوةُ عارضته، وسطوعُ حجته، ونبَراتُ صوته، وحسنُ إلقائه، ومُحْكَمُ إشارته.

ومن أظهر مميزاتِ هذا الأُسلوب التكرارُ، واستعمالُ المترادفات، وضربُ الأمثال، واختيارُ الكلمات الجزلة ذات الرنين، ويحسنُ فيه أَنْ تتعاقبَ ضروبُ التعبير من إخبارٍ إلى استفهام إلى تعجب إلى استنكار، وأنْ تكونَ مواطنُ الوقف فيه قويةً شافيةً للنفس. ومن خير الأمثلة لهذا الأسلوب خطبةُ على بن أَبي طالب [2] رضي الله عنه لمَّا أَغار سُفيانُ بنُ عوفٍ الأسدي [3] على الأنبار [4] وقتل عامله عليها:

(1) العناب: ثمر أحمر تشبه به الأنامل، والبرد: حب الغمام وتشبه به الأسنان.
(2) على بن أبي طالب: هو رابع الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وقد اشتهر ببلاغته وشجاعته، توفى سنة 40 هـ.
(3) سفيان بن عوف الأسدي: هو أحد بني غامد، وهي قبيلة باليمن، وقد بعثه معاوية رضي الله عنه لشن الغارة على أطراف العراق.
(4) الأنبار: بلدة على الشاطئ الشرقي للفرات.

«هذا أَخُو غامد قد بَلغتْ خيْله الأنْبار وقَتلَ حَسَّانَ البَكريّ [1]، وأزال خَيْلَكمْ عنْ مَسَالِحِها [2] وَقَتل مِنْكم رجالًا صالِحين.

«وقدْ بَلغني أنَّ الرَّجُل منهُمْ كان يَدْخُلُ على المْرأَة الْمُسْلمَة والأُخرى المعاهدة [3]، فَيَنْزِعُ حِجْلَهَا [4]، وقُلْبَهَا [5]، ورعاثَها [6]، ثم انْصَرفُوا وَافرِين [7] ما نالَ رجلا منهم كَلمٌ [8]، ولا أُرِيقَ لهم دَمٌ، فلو أن رجلًا مُسْلمًا مات مِنْ بَعْدِ هذا أَسَفًا، ما كان به ملُوماً، بلْ كان عِنْدي جديرًا.

«فَواعجَبًا مِنْ جدِّ هؤُلاء في بَاطِلِهِمْ، وفَشَلِكُمْ عنْ حقِّكُم. فَقُبْحًا لَكمْ حِين صِرْتُم غَرَضًا يُرْمَى [9]، يُغار علَيْكمْ ولا تُغيرُون، وتُغْزَوْن وَلا تغزونَ، ويُعْصى الله وترْضَوْن [10]».

فانظر كيف تدرج ابن أبي طالب في إثارة شعور سامعيه حتى وصل إلى القمَّة، فإنه أخبرهم بغَزْو الأنْبار أولا، ثم بقتل عامله، وأنَّ ذلك لم يكْف سُفْيان بين عوف فأغْمد سيوفه في نحور كثيرٍ من رجالهم وأهليهم.

ثم توجه في الفقرة الثانية إلى مكان الحميَّة فيهم، ومثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربي كريم، ألا وهو المرأة، فإنَّ العربَ تبذل أرواحها رخيصةً في الذود عنها، والدفاع عن خِدْرها. فقال: إنهم استباحوا حِماها، وانصرفوا آمِنين.

وفي الفقرة الثالثة أظهر الدَّهَشَ والحَيْرَة من تمسك أعدائه بالباطل ومناصرته، وفشلِ قومه عن الحق وخِذْلانه. ثم بلغ الغيظ منه مبلغه فَعيَّرهم بالجُبن والخَوَر.

هذا مثال مِن أَمثلة الأُسلوب الخطابي نكتفي به في هذه العُجَالة، ونرجو أَن نكونَ قد وُفقنا إلى بيان أسرار البلاغةِ في الكلام وأنواع أساليبه، حتى يكونَ الطالبُ خبيرًا بأفانين القول، ومواطنِ استعمالها وشرائط تأديتها، واللهُ الموفق.

(1) حسان البكرى: هو عامل علي رضي الله عنه على الأنبار.
(2) المسالح جمع مسلحة بالفتح: وهي الثغر حيث يخشى طروق العدو.
(3) المعاهدة: الذمية. (4) الحجل: الخلخال. (5) القلب بالضم: السوار.
(6) الرِعاث: جمع رعثة، القرط. (7) وافرين: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم.
(8) الكلم بالفتح: الجرح. (9) الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهام ونحوها.
(10) يشير بالعصيان إلى ما كان يفعله جيش معاوية من السلب والنهب والقتل في المسلمين والمعاهدين، أما رضا أهل العراق بهذا العصيان فكناية عن قعودهم عن المدافعة، إذ لو غضبوا لهموا إلى القتال